

اللغة العربية وأثر القراءات في تطورها

الأستاذ الفاروق في كرجالي

عميد كلية اللغة العربية
(جامعة الترويين)

المستوى الثقافي والحضاري للامة - وتتطور اما الى الحياة واما الى الممات ، واما الى ما بينهما - والبحث عن حياتها او موتها او فتورها كالبحت عن عوارض الكائنات كلها - يرجع الى الكشف عن مقوماتها ، وطوارنها ، ومدى استمدادها لما يطلب منها .

ثم ان عناصر حياة اللغة تتكون من عدة اصول :

- 1) الاشتقاق والقياس .
- 2) وقابلية التطور وصلاحيه الاداء .
- 3) ومرونة الاسلوب وحلاوة المنطق .
- 4) ووفرة المادة ونماء الثروة .
- 5) ونصاحة اللفظ وبلغة الكلام .

اما الاصل الاول فهو في اللغة العربية اجلى مظاهرها ، وسر من اسرار تفوقها وبه كانت احق واجدر بالحياة والبقاء لباب الاشتقاق والقياس واسع في هذه اللغة لا يضيق مهما اتسع مجال العقل وخياله ومثال لذلك المصدر والصفة فلهما في اللغة العربية العدد العديد من الصيغ والابنية واذا لاحظنا ذلك في

قرر علماء اللغة والاجتماع قديما وحديثا - ان القصد من وجود اللغة هو التعبير عما يختلج في الضمير من المعاني والاهراض - وان اقرب طريق وايسر وسيلة الى ذلك هو الالفاظ والاصوات التي لا تكاد تتفاوت في الوصول الى هذه الغاية وان كانت تختلف في افعالها حقها اختلافا كثيرا - وان الوضع اللغوي كان من لطف الله بعباده ليتسنى لهم التفاهم والتعاون لان الانسان لا يمكنه ان يستقل بحياته ولا ان يعيش بانفراده كما ان ذلك اوفق لغرض الدال اذا كان لا يريد اطلاق غير المخاطب على مدلولها ، حيث انها توجد عند الحاجة وتنقضي بانتقضائها - وان معاني الحياة اكثر من ان يعبر عنها فلكل لفظ معنى وليس لكل معنى لفظ .

واللغة العربية من بين اخواتها اللغات السامية حباها الله عذوبة اللفظ وجمال الاسلوب وغازاة المادة وامدها بقوة الدفاع عن حياتها واستقلالها لما تتوفر عليه من عوامل التطور وعناصر البقاء ، وهي ككائن من الكائنات الحية ، وكمنظهر من مظاهر السلوك ، وكظاهرة من ظواهر النشاط تخضع الى سنة التطور وعوامل الزمان والمكان فتتأثر بذلك على حسب

الافعال ومزيداتها تصاعدت الصور القياسية الى حد لا نظير له في اللغات الاخرى فالقياس والاشتقاق يجعلان اللغة العربية فنية ثرية ، ويفتحان الباب على مصراحيه امام الكتاب والشعراء لتسجيل افكارهم وابراز مواهبهم واذا تجلت قيمة هذا الاصل الى هذا الحد لم يبق شك في فضل براعتها ونمو حركتها، واما الاصل الثاني وهو قبول اللغة للتطور وصلاحيتهما للاداء فهو في اللغة العربية بمكان لا يستطيع انكاره .

كانت تستعمل في اقراض بسيطة مثل التخاطب والعواطف ، والشارات والمواقف وشبه ذلك مما يتناسب وحياة البداوة وقامت بما طلب منها في هذا الشأن خير قيام وبعد ما خفت راية الاسلام ولبت حجتها اصبحت اللغة لغة دين وحكم وقصص وسياسة واساليب واحتجاجات فوسعت لغة العرب كل ذلك ولم تضق به ذرما كما قال شاعر النيل حافظ ابراهيم رحمه الله في تمجيدها على لسان حالها :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية

وما ضقت عن ابي به وعظات

كيف اضيق اليوم من وصف الالة

وتنسيق اسماء لمخترعات

انا البحر في احشائه الدر كامن

فهل سالوا الغوامس من مدفاتي

ثم استعملت في اقراض جديدة اقتضاها الانفاس في الترف والامعان في الحضارة كوصف القصور وما بها من الاثاث والرياش والعمران، وكنتع البساتين وما بها من الاشجار والازهار والالوان الى غير ذلك مما يلائم انظمة الملك واساليب الحضارة التي استدهاها التقدم الفكري والاجتماعي ، ثم كانت لغة علم وادب وتاليف وترجمة فلم يضق صدرها ولم يقصر لسانها عما طلب منها في مصطلحات الطب والصيدلة ، والحكمة والفلسفة ، والفلك والهيئة ، والعلوم الطبيعية والرياضية ، واما الثالث وهو مرونة الاسلوب اي قبولها للابتكار والتجديد في صوغ المعاني وتقلبات اوضاعها فلها فيه الحظ الاوفر والمقام الاول اذ كانت اللغة في عهدنا الاول هادية وبسيطة بسيطة معانيها لا تكاد تخرج عن الحقيقة فيرسل المتكلم كلامه على حسب مقتضى الحال بدون تكلف ولا تعمل لا في الفاظها ولا في معانيها فاذا هي في صدر

الاسلام وما بعده من العصور تتراعى في لباس انيق وفي صور زاهية تترقى في البلاغة وتتنوع في المجاز والتشبيه مما زادها حلاوة في النفس ولذادة في الطبع - وذلك شيء ظاهر في اساليب الخطباء والشعراء والكتاب الاسلاميين الذين انفسح المجال امامهم ، بما هيأته لغة التنزيل من افاق جديدة في اللغة وفي المعرفة - ولا يغيب عن الاذهان ان للقرءان العظيم اثرا قويا وثيرا سريعا في نشر اللغة العربية ورفع مقامها وتوفية كلماتها اذ جاء بما لا عهد للعرب به من كلمات كالساعة والسكينة مثلا فان العرب كانت لا تعرف من الساعة سوى الحصة من الزمان ولا تعرف الساعة بمعنى القيامة كما انها لا تعرف السكينة بمعنى الوفاة والطمأنينة ، ويقول ابن فارس في فقه اللغة ان العرب « كانت في جاهليتها على ارض من ارض اباانهم في لغاتهم وادابهم ونسائلهم وقرابينهم فلما جاء الله تعالى بالاسلام حالت احوال ونسخت ديانات ، وابطلت امور ونقلت الفاظ من مواضع الى مواضع اخرى بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فكان مما جاء في الاسلام ذكر المومن والمسلم والكافر والمنافق ، والعرب اتما عرفت المومن من الايمان والايمان هو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط واوصافا بهما سمي المومن بالاطلاق مومنا وكذلك الاسلام والمسلم اتما عرفت منه اسلام الشيء ثم جاء في الشرع من اوصافه ما جاء وكذلك كانت لا تعرف من الكفر الا الفطراء والستر . فاما المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم ابطنوا خلاف ما اظهروا وكان الاصل من نافقاء اليربوع - ولم يعرفوا في الفسق الا قولهم فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرها وجاء الشرع بان الفسق الانفاس في الخروج من طاعة الله - وكذلك الصيام اصله عندهم الامسالة ثم زادت الشريعة النية وحظرت الاكل والمباشرة وغيرهما من شرائع الصوم وكذلك الحج لم يكن فيه عندهم الا القصد ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشماله وكذلك الصيام لم يكن فيه عندهم الا القصد ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشماله وكذلك الزكاة لم تكن العرب تعرفها الا من ناحية النماء وزاد الشرع فيها ما زاده وعلى هذا سائر ابواب الفقه فالوجه في هذا اذا سئل الانسان منه ان يقول فيه انسان لغوي وشرفي ويذكر ما كانت العرب تعرفه ثم ما جاء الاسلام به وكذلك سائر العليوم كالنجو

عربية حيث تكلمت بها العرب وحولتها عن اصلها واخضعتها لنفوذ حكمها الا ترى انها لا تدمه على لفظه الذي كان عليه عند المعجم الا اذا كانت حروفه في المخارج والصفات كحروف العرب .

وذلك مثل تنور وصابون فانه اتفقت فيهما اللغة العربية واللغة العجمية وعند ذلك يكون منسوبا الى العرب لا الى المعجم اما اذا لم تكن حروفه كحروف العرب او كان بعضها كذلك دون بعض فلا بد لها ان ترددا الى حروفها ولا تقبلها على مطابقة حروف المعجم - ومن اوزان الكلم ما تتركه على حاله في كلام المعجم ، ومنها ما تتصرف فيه كما تتصرف في كلامها واذا فعلت ذلك صارت تلك الكلم مضمومة الى كلامها كالألفاظ المرتجلة والاوزان المبتدأة بها .

ومما يضمن سعة اللغة العربية كثرة المترادفات وهو ما يمين الكاتب المولع بالبديع على شجوه وجناسه وفواصله ، والشاعر المرتبط بميزاته وقافيته وموازنته فوجود المترادفات في اللغة العربية يتوافق مع طبيعتها في السحر والابداع .

وهامي كتب لغة اللغة تكفلت بضبط مسميات الالفاظ ومواقع استعمالها وما بين معانيها من الفروق وان قلت ودقت فاذا احكم الكاتب او الشاعر استعمالها كان مصورا للمقاصد والمطالب بكل دقة وبكل وضوح .

واما الاصل الخامس وهو فصاحة اللفظ وبلاغة التركيب فقد بلغت فيه العربية المقام الامثل وقد تجمعت هذه الصفات في مضر ، وانحصرت في قريش ، وتلخصت في النبي الهاشمي صلى الله عليه وسلم كما روى عنه انه قال : « انا أفصح من نطق بالفساد بيد ابي من قريش ونشأت في بني سعد » . ومن بلاغته صلى الله عليه وسلم انه تكلم بما لم يسمع من العرب قبله كقوله « مات حتف انفه » - « وحمي الوطيس » - « ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » - الى غير ذلك مما سجله الجاحظ في كتاب « البيان والتبيين » .

لهذه هي اصول حياة اللغة وبقائها ولا نشك في توفر لغة الامراب والبيان على هذه العناصر وانها لم تزول كما كانت لغة العلم والثقافة ، لا تاخر عن مسابرة ركب الحضارة بشرط ان يعمل اهلها على

والمروض والشعر كل ذلك له اسمان لنوي وصنمي» وقد اصبح كل هذا بحكم القرمان من الالفاظ المستحدثة في العربية بالاضافة الى ما كان جاريا عندهم وادرجا بينهم ويرجع الفضل الى القرمان الكريم في ارشاد اهلها الى العناية بها لما حازته من اسباب القوة ، والرقي ، والحيوية ، قال تعالى : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » ، « انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » ، « وكذلك انزلناه حكما عربيا » ، بل هو اعظم ضمان لصيانتها من الضياع وحمايتها من الفساد فهو ديوانها الجامع ودستورها المانع ، ولذلك نمتقد ان الحق والصواب مع من حث ويحث على حفظ القرمان الكريم صوتا لادابها وروحنا عليها لطلابها وقديما قالوا القرمان قاموس من لا قاموس له وسند من لا سند له .

ومن هنا كان لقوة الدولة العربية الاسلامية التي ركزت حياتها على كتاب الله عز وجل اثر كبير في صقل اللغة واستثمارها والتوسع في دلالتها واساليبها لاسيما اذا كثرت الحاجات والمحسوسات وتجددت الوسائل والادوات فان ذلك يساعد على ترقيتها وتوسيع كلماتها ، وما زال الكتاب المصريون بطالموننا كل حين بأسلوب جديد وابتكار فريد وذلك ما يشهد على قدرة اللغة ومرونتها واستعدادها .

واما الرابع وهو وفرة المادة فهو شيء لا تلام عليه اللغة العربية بل وربما شكها اهلها من كثرة مفرداتها وصعوبة الاحاطة بها وهذه معاجمها تهديك الى الحق في هذا الباب فلسان العرب لابن منظور الافريقي بنطوي وحده على ما يقارب ستين الف مادة واذا اعتبرت ان كل مادة يدخلها الاشتقاق وما يتفرع عليه ادركت ان جملة مفردات اللغة لا تكاد تدخل تحت الاحصاء وبذلك استطاعت لغة العرب ان تقوم بنفسها وتستقل عن غيرها مما حسدتها عليه كثير من اللغات الناهضة - ولا عار في وجود الدخيل من اللغات الامعجية فان ذلك لا ينقصها شيئا من استقلالها لان مقومات اللغة المكونة لجهازها تامة وقائمة - ولان اللغات ياخذ بعضها من بعض كما ياخذ الانسان من الانسان وهذا شأن الكائنات يرتفق بعضها ببعض ، الا ان نسبة الاخذ قد ترتفع وقد تنخفض - ولان الكلمات الدخيلة اقلية ولا اعتبار للاقلية مع الاكثرية - ولان هذه الالفاظ اصبحت

ضمان وجودها في حياتهم ، ونفوذها في عالمهم ، وكما يلد لي ان « اورد قصة طريفة اوردتها ابن الاثير في المثل السائر قال : « وحضر هندي في بعض الايام رجل من اليهود وكنت في الديار المصرية ، وكان لليهود في هذا الرجل اعتقاد لمكان علمه في دينهم وفي غيره وكان كذلك فجرى ذكر اللغات وان اللغة العربية هي سيده اللغات وانها اشرفهن مكانا واحسنهن وضما فقال ذلك الرجل : « كيف لا تكون كذلك وقد جاءت ااخرا فنفت التبيح من اللغات قبلها واخذت الحسن ثم ان واضعها تصرف في جميع اللغات السابقة فاختصر ما اختصر وخفف ما خفف فمن ذلك اسم الجمل فانه عندنا في اللسان العبراني - كوميل - مما لا على وزن فوهيل فجاه واضع العربية وحذف منها الثقل المستبشع وقال جمل فصار خفيفا حسنا وكذلك فعل في كذا وكذا .. »

الا ان نفسي حدثني ان هذا الكلام اساء الى العربية اكثر مما احسن اليها لان اليهود لا يمكنهم ان يتجردوا عن سمومهم واحقادهم في كل ما يمت الى الاسلام والمسلمين بصلة وقد اكد الله لنا ذلك في كتابه الحكيم « لتجدن اشد الناس عداوة للذين امنوا اليهود والذين اشركوا » وهذه الاساءة تتجلى في ثلاثة مواضع - الاول قوله : « كيف لا تكون كذلك وقد جاءت ااخرا » والثاني قوله : « ثم ان واضعها تصرف في جميع اللغات السابقة » والثالث قوله : « فمن ذلك اسم الجمل فانه عندنا في اللسان العبراني - كوميل - الخ ووجه ذلك انه يشير الى انها تولدت عن غيرها وانها مأخوذة من اللغات العبرية على الخصوص مع ان اللغة العربية عند المحققين هي شقيقة اللغات السامية وليست متولدة من شيء منها لا كما يزعم بعضهم انها بنت اللغة العبرية والبيئة على انها اصل بنفسها - انها اقرب اللغات السامية شيئا باصلها حسبما اثبتته الباحثون في نشأة اللغة الاولى وما تفرع عنها من لغات - وانها عاشت في نواحي منزلة عن بقية اللغات السامية وبذلك يصر اتصالها بها بصلة الاشتقاق والتفريع .

فاللغة العربية في غنى عن شهادة اليهود - اذ هي اوضح وسيلة للتمييز عن الاغراض واقدر على تصوير الحقائق وتحليل الغوامض ، واوسع من ان تضيق من موضوع او محسوس - وهي لغة التنزيل الذي يعتبر حدانا عظيما في تاريخ اللغة العربية لانه

نموذج جديد تطورت العربية فيه فكانت خليفة ان تكون عربية من دين جديد هو في الحقيقة حضارة جديدة ومن الطبيعي ان تتطلب هذه الحضارة الطريفة مادة لغوية جديدة تسمى اللغة الاسلامية او الالفاظ الاسلامية - ومن اجل ذلك وجد الباحثون انفسهم في حاجة الى وضع مؤلفات تشرح هذه اللغة الجديدة فكانت هي الكتب التي تحمل عنوان مجال القران ، او غريب القران ، او مشكل القران ، او تشبيهات القران ، او معاني القران ، فمثلا الفاظ الصلاة والزكاة والصوم والجهاد والقرض والسنة والصدقة والنافلة والحديث وغير ذلك مما يدخل في نطاق اللغة الجديدة - دلت على معان جديدة في هذه الفترة التاريخية من تاريخ اللغة العربية .

ولغة القران والحديث طبعت اللغة العربية بطابع واضح مبين هو التزامها الاحراب الذي لم يكن شاعرا ولا مستعملا على نحو ما التزمته نصوص القران ومعنى ذلك ان العربية في لهجاتها المتعددة لم تكن تتقيد بضوابط الاحراب ولكن لفظة التنزيل هي التي جعلت الاحراب سمة لازمة للعربية التي اريد لها ان تكون كذلك - وعلى هذا فلم يدخل عصر من عصور التاريخ اللغوي من ازدواجية في اللغة - لغة نصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته ، ولغة هامية تستعمل في التخاطب والتفاهم ، وربما تعدى الامر فيها مسألة الاحراب الى الالفاظ نفسها حيث تكون بعيدة عن الالفاظ الصحيحة - وعذر العرب انهم كانوا يتأخمون اقواما في اطراف الجزيرة العربية فاعدهم ذلك وغير لسانهم وحرف كلامهم - واعتبارا لذلك يمكن ان تكون صيغ الجموع وغيرها راجعة الى اختلاف اللهجات الخاصة اذا كانت قريبة من اللغة الاصلية .

وعلى اي حال فاللهجات العديدة ، والاستعمالات الجديدة التي لا يعترف بها علماء العربية ما هي الا نتيجة للتطور الطبيعي في اللغة واستمرار حياتها من حيث انها فرضت نفسها فرضا وجمعت حولها جموعا من الناس .

ومن الاستعمالات الجديدة ما روي ان احد الظرفاء جاء الى ابي تمام الشامي المشهور وساله ان يعطيه قارورة من ماء الملام حيث انكروا عليه قوله :

لا تسقني ماء الملام فانني
صب قد استعدت ماء بكالي

في تأليفه هو التشبيه القائم في قول امرئ القيس
أبتلني والمشرني مضاجسي
ومسئونة زرق كانياب الهوال

هل المشبه به معلوم أو مجهول - وهذا الكتاب
يفسر ما في الآيات الكريمة من مواد غريبة ، ويبين
وجوه نظم القرآن التي يوجد مثلها في كلام العرب،
ويتضمن كثيرا من مسائل البلاغة كالتشبيه
والاستعارة والكناية ، والتقديم والتأخير والإيجاز
والإلتفات ، ورتبه صاحبه على حسب ترتيب سور
القرآن وآياته ليسهل تناوله ويعم نفعه ان شاء
الله - وكتاب «غريب القرآن» او «مشكل القرآن» لابي
محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة
213 هـ ورتبه كترتيب ابي عبيدة ، واعتمد فيه على
كتاب ابي عبيدة وعلى غيره ممن سلك هذا المسلك
والمراد انه اخذ من ذلك اخذ الناقد البصير الذي
يمرف ما ياخذ وما يذر ولذلك تراه مرة يتقد نقدا
لاذما واخرى نقدا هادئا - وكتاب «تلخيص البيان»
في مجازات القرآن ، لابي الحسن محمد بن ابي
الحسن المعروف بالشريف الرضى ، المتوفى
سنة 406 هـ يبين فيه ما في القرآن من
استعمالات مجازية ونهج منهج ابي عبيدة في الوضع
والتقرير - وكتاب ابي القاسم عبد الله بن نايقا
البغدادى المتوفى 485 هـ الذى حلق في اجواء
الفضاء ، واضفى على التشبيهات القرآنية أنوارا
جديدة وقدم معلومات وافادات طريفة فحق له ان
يكون مرجعا في الدراسات القرآنية والبحوث
البلاغية والاسرار اللغوية - وكتاب «الإيجاز في انواع
المجاز لابي محمد سلطان العلماء عز الدين بن هيد
السلام الشافعي المتوفى سنة 660 هـ يده
بمعلومات قيمة عن المجاز والبلاغة ورتبه على سور
القرآن الكريم وختمه بطرائف وفرادى .

فقال له ابو تمام لا اعطيك ما سالت حتى
تاتيني بريشة من جناح الذل وهو يشير في جوابه
اللطيف الى قوله تعالى في الوصية بالوالدين :
« واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وهو يريد
ان يقول ان لاستعمالات المجاز في العربية الوانا من
الإبداع والابتكار فكما ان لغة التنزيل ابتكرت
المجازات الدقيقة اللطيفة ، فصارت من انفس نفالس
العربية ، كذلك يكون من حق الشاعر المبدع ان
يبتكر في استعمال المجاز .

ولا ننسى ان المجاز قام بدور كبير في تطور
اللغة وفي مسألة الدلالة ، والمجاز واقع في كل زمان،
وقام بكل لسان، والكلمة خاضعة للتغير بحكم الطبيعة،
وبحكم الشريعة .

وبعد فقد علمنا - ان انتشار الاسلام كان من
اقوى العوامل في انتشار اللغة العربية اذ هي لسانه
واداته - ومن مادة الناس انهم يتسارعون الى تعلم
لغة الغالب لكي يضمنوا لانفسهم تقريبا من الدولة
الغالبة فيتسمنون المراكز ، ويترسمون المناصب
وذلك شأن المغلوب مع الغالب فلغة الفاتح تنتصر
عندما ينتصر وتستقر عندما يستقر وامان على ذلك
هنا ما في تعاليم الاسلام من التسامح واقامة
ميزان الحق والعدل ، فاقبل الناس على الاسلام وعلى
لغته وسار الاسلام وسارت اللغة معه قدما بقدم -
وقد اثر القرآن الكريم تأثيرا عظيما في اللغة والبلاغة،
وكان باعثا قويا على تدوين اصولها وقواعدها ،
وسائر علومها .

ومن الكتب التي عنيت بدراسة لغة القرآن
واساليه كتاب «مجاز القرآن» لابي عبيدة معمر ابن
المثنى اللغوي المتوفى سنة 208 هـ وقد كان السبب